مصر وعلاقتها بالخلافة

للدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب

من ولاة العصر العباسي الذين عرفوا بالخير والعدل — واكتساب محبة الأهلين موسي بن عيسى [1] الذى ولى مصر ثلاث مرات . فقد اشتهر بالعدل فى البلاد وتحبب إلى النصارى فأذن لهم ببناء الكنائس التى هدمها سلفه على بن سليمان وقد أشار عليه بذلك الامام الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ، بحجة أن إرجاع الكنائس المستحدثة فى الاسلام من مستلزمات عمارة البلاد . ومما يدل على عناية هذا الوالى بالعمارة ما كان من زيادته فى جامع عمرو [2] .

وكان عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) آخر من ولى مصر من العرب . وكان من أحسن الولاة الذين ولوها فى هذا العصر ، مما حدا بالمؤرخين إلى القول بأنه أظهر من العدل مالم يسمع بمثله فى زمانه . وقد بلغ من تورعه وبغضه للمظالم أنه كان يروح من دار الامارة إلى مسجد العسكر ماشياً . وكان آخر من أموا الناس فى المسجد . وقد بنى المصلى الجديد سنة ٢٤٠ هـ إذ رأى أن المصلى القديم ضاق بالمصلين . وكذلك حصن دمياط وتنيس بعد أن أغار عليها الروم سنة ٢٣٨ هـ فبقيت دمياط فى يد المسلمين إلى أن استولى عليها الصليبيون سنة ٦١٦ هـ [3]

على أن عدل عنبسة وورعه لم يكسباه حب الناس جميعا ، فقد كان مكروها من البعض لاعتقاده بمذهب الخوارج مما دفع بالفضل بن يحيى إلى أن ينحى فيه باللائمة على الخليفة لتوليته إياه مصر . وما قاله أيضا من شعر يتهم فيه هذا الوالى بالتراخى عن طرد الروم من هذه البلاد وقت استيلائهم على دمياط وتنيس كما تقدم

مَن فتى يبلغ الامام كتاباً ... عربيا ينتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعت إلينا ... حين وليتنا أميرا مصابا
خارجيا يدين بالسيف فينا ... ويرى قتلنا جميعا صوابا
لم يصل إلى الصلاة نهارا ... وينادى السحور ، ضل وخابا

ومن هنا نتبين كيف كان اعتقاد عنبسة بمذهب الخوارج — إن صح أنه كان يعتقد به — سبباً فى الحط من شأنه وإظهار ما أتاه فى حكمه من عدل وما أظهره من ورع ، بمظهر العسف والظلم حتى أدى ذلك بالفضل إلى اتهام هذا الوالى بالقعود عن نصرة المسلمين حين أغار الروم على مصر ، فقال الفضل للخليفة المتوكل :

أترضى بأن يعطى حريمك عنوة ... وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى تنيس والروم وثب ... بتنيس رأى البين منه وأقرب
مقيمون بالأشتوم يبغون مثلما ... أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبرا ولا درى ... من العجز ما يأتى وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مضيعة ... بمصر وإن الدين قد كاد يذهب [4]

لم يل مصر بعد عنبسة وال من العرب كما تقدم ، فقد وليها بعده يزيد بن عبدالله (٢٤٤ — ٢٥٣ هـ) من موالى المنتصر العباسى وكان كثيره من الأتراك من السنيين الغلاة . وكان شديداً صارماً وأتى فى عهده بكثير من الاصلاح وقضى على كثير من معايب المجتمع ، فمنع النداء على الجنائز وضرب من نادى عليها ، وعطل الرهبان وتتبع الملوين فلحقهم منه شدائد وأهوال

وورد إليه كتاب الخليفة المستعين بالاستسقاء لقحط كان فى العراق ، فاستسقى الناس فى يوم واحد . وفى عهده خرج بالاسكندرية رجل يقال له جابر بن الوليد واجتمع إليه خلق كثير من العرب والقبط والنوبيين فاستولى على الكريون وسنهور وسخا وسمنود ، فأنفذ الخليفة مزاحم بن خاقان مدداً لواليه على مصر . وظلت ثورة جابر ابن الوليد على حالها طوال عهد يزيد بن عبد الله الذى صرف فى ربيع الأول سنة ٢٥٣ هـ وولى بعده مزاحم بن خاقان فواقع جابر بن الوليد فى أرض الجيزة والفيوم حيث أسر فى جنبويه من كورة البدقون (المكتبة الجغرافية

(١) ابن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس .
(٢) الكندي ص ١٣٢ و ١٣٤ و ١٣٧
(٣) الكندى ص ٢٠١ و ابن دقاق ج ٥ ص ٨١

(١) الكندى ص ٢٠١ ابن دقاق ج ٥ ص٥٣ المقريزى خطط ج ١ ص ٣١٤ ، ٣١٢
(٢) الكندى ص٣٠٢ ، وابن اياس ج١ص٣١٤